دراسات أيوبية :

الجاسوسية

في حروب الديموبين

لجمال الدين الشيال

منذ أقدم العصور وتاريخ الحرب يصاحب تاريخ الانسانية ، وكان قواد الجيوش في كل حقبة من حقب التاريخ يعتمدون — لاحراز النصر — على الجاسوسية أكثر مما يعتمدون على الخطط الحربية وإعداد الجيوش . فالجواسيس هم الذين يزودون الخصم بمواطن الضعف في جيش خصمه ، ونواحي النقص في جنده وسلاحه ، وهم الذين يدعون له في نفوس الشعب الذي يحاربه ، ويمهدون له السبيل ليسهل عليه النصر ، وهم أخيراً الذين يقدمون للقواد الوصف المسهب لأصلح الطرق وأقربها وأوهنها لتسير الجيوش عبرها

والحرب العالمية الحالية تظهر كل يوم ألف دليل ودليل على قيمة الجاسوسية ، والدور الخطير الذي يلعبه الجواسيس . وألمانيا دولة أفادت من هذا النظام كثيراً فأنشأت وزارة خاصة للدعاية ، وبثت رجالها وأعوانها في كل مملكة تريد ضمها ، يتخذون في كل بلد لبوساً خاصاً فهم تارةً علماء ، وتارةً سيّاح ، وهم حيناً رجال أعمال ، وحيناً آخر مهندسون وأطباء ومدرسون الخ

ولقد كان تاريخ ملوك بني أيوب جميعاً تاريخ حرب وجهاد فسطع نجم مؤسس الدولة صلاح الدين في ميادين القتال ، وظلّ خلفاؤه جميعاً في نضال يتممون رسالته ، وقضى آخر عظيم منهم وهو الملك الصالح نجم الدين أيوب وهو يبذل الجهد أكبر الجهد ضد الفرنسيين عن مصر . وفي تراجم هؤلاء الأفذاذ صفحات مجيدة من تاريخ الجاسوسية فيها صور واضحة لما كان يسديه جواسيس المسلمين من خدمات جليلة الى جيوشهم ، كان لها دائماً فضل كبير في كسب المعارك وإحراز النصر ، وسنحاول في هذا المقال عرض بعض هذه الصور :—

كان الصراع على أشده بين جنود المسلمين وجنود الصليبيين في الشام ، وأعدّ صلاح الدين

لعدوه ما استطاع من قوة ومن رباط الخيل. وحشدت أوربا رجالها وسفنها وأسلحتها وأرسلتهم وفوداً بعد وفود يقودهم جيماً أعاظم ملوك هذه القارة

وفي سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩م) حاصر الفرنج عكا برّاً وبحراً ، واشتدوا في حصارها ، وضيقوا عليها الخناق نيفاً وسنتين ، ولاقى المسلمون داخل حصونها المحن والشدائد وهم يجاهدون في سبيل الله . وقلق صلاح الدين فكان دائم التفكير في انجدته سكان عكا من أهلين وجنود فكان يرسل الى مصر يأمر رجاله بها ان يبعثوا إلى عكا بالسفن شحنة بالقوت والذخيرة وخرجت هذه السفن تحميها شواني الاسطول المصري ، وحملت الى المحاصرين الزاد والمؤونة. وكان صلاح الدين يختار من الغوّاص من اشتهر بالمهارة في السباحة يحمّلهم المال والكتب يربطونها على أوساطهم ثم يغوصون بها الى أن يصلوا عكا ، ويعودون الى قائدهم البطل بأجوبة الرسائل وأخبار المدينة وأهليها وجنودها

***

وكان في معسكر صلاح الدين جندي شغف حبّاً بتربية حمام الزاجل يرسله ليطير ويطوف بحيمته ، وأقام له برجاً من خشب ليرتحل طول نهاره ثم يعود فيحط عليه ، فكان صحبه من الجند يتندرون عليه ، ويقولون : ما لهذا الرفيق يولع بما لا فائدة فيه ، ولا طائل تحته ! » فلما كان هذا الحصار المضروب حول عكا أفاد هذا الحمام كل الفائدة ، فكان يطير بالرسائل بين السلطان وجند المسلمين داخل أسوار عكا فساعده هذا على معرفة أخبار العدو تباعاً ، فكان يدبر له الخطط التي تفسد عليه ما يبذل من جهده لتضييق الحصار على المدينة . وكان أجرأ هؤلاء السابحين بين معسكري المسلمين مسلم من أهل الساحل اسمه عيسى وهب نفسه للجهاد فكان يخاطر بروحه ويلقي بنفسه في اليم فيتخذ طريقه في البحر سَرَبًا بين سفن العدو المحاصرة للمدينة ، يحمل الى مسلمي عكا المال والرسائل ، وكان اذا ترك البلد عائداً أطلق الحمام بالرسائل تفيد خبر رحيله ولكنه عام مرة لبلاً نحو عكا وعلى وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار وكتب للعسكر ، ومضت أيام وقد أبطأ في العودة ، وأخذ المسلمون يرتقبون على الشاطىء أن يروه كالعادة يغلب الموج في عودته ظافراً بأخبار المدينة - وأخيراً والفرح يطفحان على وجهه - ، ولكنه لم يعد وتقوّل عليه البعض وتناولت الظنون أن يكون قد خان جيشه ودينه ولكن عيسى كان أنبل نفساً ، وأقوى روحاً ، فقد قضى عليه البحر ، ومات شهيد الواجب والجهاد ، وظلت الامواج تتقاذفه حتى ألقته بعد أيام على ساحل عكا والاموال والرسائل كما هي على وسطه لم يمسها انسان

وعلى الفرنج هؤلاء الساعين ، وحاولوا أن يسدوا على السفين طريقهم في استطلاع اخبار المدينة ، ويقضوا على هؤلاء الجواسيس ، فنصبوا الشباك في البحر . فكان إذا خرج سابح وقع فيها ، فقبض على البعض بهذه الطريقة ، وتخوّف البعض الآخر فامتنعوا عن السباحة ، وأحجموا عن المخاطرة بأرواحهم

واشتد الضيق ثانية بأهالي عكا ، وانقطعت اخبارهم عن السلطان وبعث فرانسوا — والي المدينة والمدافع عنها — على أجنحة الحمام يشكو قلة الميرة فلجأ صلاح الدين إلى طريقة اخرى تعتبر في الحق من أحدث طرق الجاسوسية ، فالشبه كبير جدًّا بينها وبين الأسلوب الذي يتبعهُ هتلر الآن لايصال جنده إلى البلاد التي يسعى الى ضمها . أعدَّ السلطان بطسة (سفينة) كبيرة ، وملاها بنفر من نصارى بيروت الذين أسلموا ، وأمرهم فتزيوا بزي الفرنج وحلقوا لحاهم ، ووضعوا الخنازير على ظهر البطسة ، ورفعوا الصلبان ، وخرجت السفينة بهم فاعترضتها سفن الفرنج وحسبوها من سفنهم « فقالوا : — نراكم قاصدين البلد ؟ — قالوا : — أوما أخذتموه بعد ؟ — قالوا : — لا — قالوا : — وراءنا بطسة أخرى ، ردوها — فتأخروا عنهم ، فردوا القلاع الى البلد ، ودخلوا الميناء (عكا) ، وكبّر المسلمون »[1]

***

هذا ما حدث إبان حصار عكا في عهد صلاح الدين وشبيه به ما حدث سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) عند حصار الفرنج لمدينة دمياط في عهد الملك الكامل الايوبي ، فقد أحاطوا — في هذه السنة — بالثغر المصري ، وأهله يدافعون عنهُ الدفاع المجيد ، ويبذلون الارواح فداء لبلدهم ، مع قلة الأقوات وغلاء الأسعار

وكان الملك الكامل بمعسكر بجيشه جنوب المدينة ، وتحايل ليعرف أخبارها فلم يستطع حتى تقدم له رجل أصله من بعض قرى حماه واسمه علم الدين شمائل ، وسعى حتى صار يخدم في الركاب السلطاني جاندارًا « فكان يخاطر بنفسه ، ويسبح في النيل — ومراكب الفرنج به محيطة ، والنيل قد امتلأت به شواني الفرنج — فيدخل الى مدينة دمياط ، ويأتي السلطان بأخبار أهلها . فاذا دخل اليها قوّى قلوب أهلها ، ووعدهم بقرب وصول النجدات »[2] وقد أعجب السلطان به وبجرأته فشمله بعنايته ورقاه حتى صار أمير جاندار ، ثم عينهُ أخيرًا واليًا على القاهرة .

---

(١) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص ١٤٥

(٢) المقريزي ، السلوك ، نشر الدكتور زيادة ج ١ ص ١٩٨

ويقول صاحب شفاء القلوب ان المعظم عيسى بن الملك العادل ابي بكر كان يختار لجواسيس — أثناء جهاد الأيوبيين ضد الصليبيين — ليأتوه بالاخبار . وكان هؤلاء الجواسيس — شأن الجواسيس في كل زمان ومكان — يعتمدون على النساء في تصيد الاخبار فقد جاء في هذا الكتاب أن جواسيس المعظم بجبل عكا كانوا قد اتفقوا مع بعض نساء الفرنجة بها ان يشرن اليهم بالشموع ليلاً لينقلن اليهم أخبار العدو ، فاذا عزم الفرنجة على إخراج مائة جندي أوقدت المرأة شمعة واحدة ، وان كانوا مائتين أوقدت شمعتين ، وهكذا — ثم تشير المرأة بهذه الشموع الى الجهة التي يريد الجند قصدها : وكان المعظم لا يضن بالمال الوفير يعطي هؤلاء النسوة جزاء لما يؤدين من خدمة جليلة فحدثهُ بعض الخاصة مرة منتقداً بقوله : « هذا إسراف لا يحلّ » فقال : « أنا أفدي الكثير باليسير »

ويروي المعظم عن نفسه أن الامبرور (يقصد الأمبراطور فردريك الثاني) لما عزم على غزو الشام بعثة أرسل فارساً من لدنه يستطلع لهُ الاخبار ، فبعثت امرأة فرنجية جميلة — كانت على اتصال بهذا الفارس — بالخبر الى المعظم فأرسل اليها « الثياب الحرير وعنبراً وأشياء كثيرة » فلما عاد الفارس ووجد هذه الهدايا عندها ، سألها عن مرسلها فأخبرته ، فذعر أول الأمر . ولكنها ما زالت به تلاطفه وتتودد اليه حتى اتفقا ، فكان اذا أتاه خطاب بعد ذلك من الأمبراطور حمله اليها فترسله الى المعظم مختوماً كما هو

***

وتتحدث الصحف هذه الأيام أن هتلر نفى — من بين من نفى من اليهود — كثيرين من رجال النازي ، ليظهر للعالم سخطه عليهم ، وليتيح لهم الفرصة كي يأتوه بالاخبار دون ان تثار حولهم الشكوك ، وقد فعل المعظم عيسى فعل هتلر منذ نيف وسبعة قرون ، فقد أرسل مرة الى واليه على الشوبك يأمره بنفي راهب كان يسكن الجبل منفرداً يتعبد ، فنفاه . وبعد قليل جاءه خطاب المعظم يأمره باعادة الراهب ويوصيه به خيراً ، ويقول الوالي انه عجب لهذا التصرف :— «فبحثتُ عن القصة فاذا به قد بعثه يكشف أخبار الامبرور ، وانما نفاه لئلاّ يتهم ، وأطلق لهُ أرضاً ، وأعطاه مائة دينار »

***

وبعد ، فهذه صور طريفة مما حفظه المؤرخون عن أخبار الجاسوسية في حروب الايوبيين بينها وبين أساليب الجاسوسية الحديثة شبهٌ كبير ، فهل نستطيع أن نقول مع القائلين : « إن التاريخ يعيد نفسه » وان اختلفت السوح التي يبدو فيها في كل عصر عنها في العصر الآخر